الفصل الثالث

تحقّق ما كنت أتوقع ؛ وتحرّرت من التنويم . ولكن مع ما طرأ على الطريقة من تغيير ، فإن عملية التطهير أخذت شكلاً جديداً ، كان التنويم يُخفى عن النظر قوى متفاعلة أضحت الآن بادية للعيان ودعّم فهمُها نظريتى بأساس مكين .

كيف تسنى للمرضى أن ينسوا مثل ذلك القدر الكبير من حقائق حياتهم خارجية وداخلية ثم يستعيدونها مع ذلك باستخدام طريقة فنية معينة ؟ أمدتنا الملاحظة بإجابة شافية على تلك الأسئلة : كل شيء عفا عليه النسيان كان مؤلماً على نحو ما ، كان مُفزعاً أو مستقبَحاً أو مخزياً فى عرف المريض ذاته . فوضح لنا أن ذلك هو بالذات ما أفضى إلى نسيان تلك الأمور أى إلى عدم بقائها شعورية . فإن أردنا أن تصير برغم ذلك شعورية مرة أخرى ، كان حتماً علينا أن نتغلب على شيء يناهضنا لدى المريض ؛ الأمر الذى كان يفرض علينا أن نبذل جهداً معيناً من جانبنا حتى ندافعه ونغلبه . أما المجهود الذى يتعين على الطبيب أن يبذله فقد كان يختلف مقداره من حالة إلى أخرى ، إذ يتناسب تناسباً طرديًّا مع صعوبة تذكر المريض للشيء المنسيّ . ومن الواضح أن مقدار الجهد من قِبَل الطبيب كان مقياساً للمقاومة التى تبذل من جانب المريض. ولم يتبق إلا أن أصوغ ما لاحظته فى عبارات ، وبذلك وصلت إلى نظريتى فى الكبت.

حينئذ أصبح من اليسير أن نتصور كيف نشأ المرض . لنأت بمثال بسيط ، إذا نشأ دافع ما فى نفس المرء ولكن اعترضته ميول قوية توقعنا حدوث الصراع النفسى على النحو التالى : ذلك أن القوتين الديناميتين — ولنطلق عليهما مؤقتاً "الغريزة" و "المقاومة" — ستصارع إحداهما الأخرى فترة من الزمن فى ضوء

الشعور الكامل ، حتى تُنحّى الغريزة وتستبعد منها شحنتها من الطاقة[١] ، ذلك هو الحل السوى . بيد أن الصراع فى العصاب (لأسباب كانت لا تزال مجهولة آنذاك) يفضى إلى نتيجة مغايرة . يتقهقر "الأنا" بعد أول صدمة يتلقاها فى صراعه مع الدافع المحظور ؛ فيمنع الدافع من أن يصبح شعورياً ويحول بينه وبين الانصراف الفعلى المباشر ، ولكن الدافع يبقى مع ذلك محتفظاً بكامل شحنته من الطاقة . أطلقت على هذه العملية "الكبت" ؛ وكان ذلك ابتكاراً لم يعرف له مثيل من قبل فى الحياة النفسية . وواضح أنها كانت حيلة دفاعية بدائية هى أشبه شيء بمحاولة الهروب ، فهى شكل أولى لما ينشأ بعد ذلك من حل سوى هو القمع بتحكيم العقل .

وينتج عن القيام بالكبت عواقب أخرى : فى المقام الأول يتعين على الأنا أن يحتمى من خطر دائم لهجوم لا يفتأ يشنه الدافع المكبوت ، الأمر الذى يقتضى منه أن يبذل جهداً مستمراً ، أى أن يطلق دوماً شحنة مضادة ، وبذلك تنقص قوته . ومن الناحية الأخرى فإن الدافع المكبوت الذى أصبح لا شعورياً بوسعه أن يجد منصرفاً وإرضاء بديلاً خلال طرق ملتوية وبذلك كأن الكبت لم يحقق الغرض منه . فى حالة الهستيريا التحولية [٢] يفضى الطريق الملتوى إلى أعصاب الجسم ؛ إذ يقتحم الدافع المكبوت إحدى المناطق محدثاً بذلك الأعراض . ومن ثمة فالأعراض نتيجة توفيق بين أمرين ، إذ هى بمثابة إرضاء بديل ولكنه إرضاء شائه حاد عن هدفه بفعل المقاومة التى يبذلها الأنا .

أصبحت نظرية الكبت حجر الأساس فى فهمنا للعصاب . وأصبح لزاماً علينا من ثمة أن نغير نظرتنا لمهمة العلاج ؛ فلم يعد غرض العلاج أن (يفرغ) انفعالاً اندفع فى طرق خاطئة ، بل أن يكشف عن عمليات الكبت ويستعيض عنها بعمليات حكم عقلية قد تنتهى إما بقبول ما نُبذ من قبل أو بإدانته . وقد

(١) ونقاً للتصور الاقتصادى كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى هامش ٢ ص ٣٠ . (المترجم)

(٢) هى الهستيريا التى يتحول فيها الصراع النفسى إلى أعراض جسمية مثل الشلل الهستيرى . (المترجم)

أعربت عن اتخاذى لهذا الاتجاه الجديد بإقلاعى عن تسمية طريقتى فى الفحص والعلاج تطهيراً وسميتها بدلاً من ذلك التحليل النفسى .

ويمكننا أن نعتبر الكبت مركزاً تتجمع حوله جميع عناصر نظرية التحليل النفسى . ولكن لدىّ ملاحظة جدلية أحب أن أبديها قبل ذلك . كان « جانيه » يرى أن المرأة الهستيرية مخلوق تعيس ، أعجزها الضعف الجِبِلِّى عن تحقيق التآلف بين الأفعال العقلية ، وأنها لهذا السبب كانت ضحية التفكك العقلى وضيق مجال الشعور . فى حين أن نتائج البحوث التحليلية النفسية بينت أن هذه الظواهر إنما نتجت عن عوامل دينامية — عوامل الصراع النفسى والكبت — ويبدو لى أن هذه التفرقة هى من الأهمية بحيث تكفى لوضع حدّ للزعم بأن كل ما له قيمة فى التحليل النفسى مقتبس من آراء « بيبرجانية » . ولا بد أن القارئ قد علم مما عرضته أن التحليل النفسى من الناحية التاريخية مستقل تماماً عن كشوف « جانيه » ، فضلاً عن أن مضمونه يتعارض معها ويتجاوزها ، فما كانت بحوث « جانيه » لتنطوى على شىء مما أكسب التحليل النفسى أهميته تلك للعلوم النفسية وجعله يظفر بمثل ذلك الاهتمام العالمى . لقد كنت دائماً أكنّ احتراماً لجانيه ، إذ كانت كشوفه تطابق إلى حد كبير كشوف « بروير » ، التى تمّت قبل الأولى وإن كانت نُشرت بعدها . ولكن فيما بعد عند ما أصبح التحليل النفسى موضوعاً للنقاش فى فرنسا ، خرج علينا « جانيه » بالمساءة ، وكشف عن جهله بالحقائق ، واستخدم حججاً مستهجنة . وأخيراً سقط فى نظرى ، وقضى على قيمة بحوثه الخاصة عند ما صرّح أنه إذا كان يتحدث عن أفعال نفسية "لاشعورية" لم يكن يقصد بهذه الكلمة أكثر من تعبير مجازى .

ولكن دراسة عمليات الكبت المسببة للمرض وغير ذلك من الظواهر التى سنذكرها فيما بعد حتمت على التحليل النفسى أن يأخذ مفهوم اللاشعور مأخذاً جدياً . اعتبر التحليل النفسى أن كل شئ نفسى هو فى المقام الأول لاشعورى ، أما الخاصية الشعورية فقد تظهر وقد لا تظهر . أثار هذا بطبيعة الحال إنكار

الفلاسفة ، إذ كانوا لا يفرقون بين ما هو « شعورى » وما هو « نفسى » ، واحتجوا بأنهم لا يستطيعون أن يعقلوا أن يكون ثمة (شىء نفسى لا شعورى) فى آن واحد . على أنه لم يسعنا إزاء هذا الضرب من تفكير الفلاسفة إلا الإهمال وعدم المبالاة . إن خبرتنا (التى حصلناها من حالات مرضية لم يكن للفلاسفة بها علم) التى أظهرت لنا أن ثمة دوافع عدة قوية لا سبيل إلى إدراكها إدراكاً مباشراً وإنما يستنتج وجودها شأن أى حقيقة فى العالم الخارجى — هذه الخبرة لا تدع مجالا لرأى مخالف . ويمكننى الإشادة بهذه المناسبة إلى أن الأمر لا يعدو أن يتفهم المرء حياته النفسية على نحو ما يتفهم حياة غيره النفسية . فما كان المرء ليتردد فى أن يعزو إلى غيره من الناس عمليات نفسية على الرغم من عدم شعوره بها شعوراً مباشراً وأنه لا يستطيع إلا أن يستدل على وجودها من كلماتهم وأفعالهم . وما يصدق على الآخرين ينبغى أن يصدق أيضاً على الذات . فإذا حاول امرؤ أن يمضى بالاستدلال إلى أبعد من ذلك وانتهى منه إلى أن ما فى نفسه من عمليات مختبئة إنما ترجع إلى شعور آخر تواجهه فكرة ذلك الشعور الذى لا يعرف المرء منه شيئاً ، فكرة « شعور لاشعورى » — ولا تكاد هذه الفكرة تفضُل فكرة « النفسى اللاشعورى » . هذا وإن ذهب امرؤ مذهب بعض الفلاسفة ، فيدخل فى حسابه الظواهر المرضية ، ولكنه يرى أن العمليات التى تستند إليها لا يصح أن تعتبر عمليات نفسية بل شبه نفسية ، لأفضى الخلاف فى الرأى إلى نقاش لفظى لا ثمرة له ، ولكان الأصوب أن نحتفظ بعبارة « نفسى لا شعورى » أما البحث فى كنه هذا اللاشعور فليس أصوب ولا أجدى من البحث القديم فى كنه الشعور .

قد يكون أصعب علينا أن نبين كيف تسنى للتحليل النفسى أن يقوم بتمييز آخر فى اللاشعور فيقسمه إلى ما قبل الشعور وما هو لاشعور بحق . ويكفى أن نذكر أنه بدا لى أمراً مشروعاً أن ألحق بالنظريات التى كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع ، فروضاً متعلقة

بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة المباشرة . وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج . إن تقسيم اللاشعور بدوره يرتبط بمحاولة تصوير الجهاز النفسى بوصفه يأتلف من عدد من النظم الوظيفية نعبر عن علاقاتها المتبادلة بعبارات مكانيّة ، دون أن يعنى ذلك بطبيعة الحال أنه تقسيم يستند إلى التشريح الفعلى للمخ . (أطلقت على هذه الطريقة فى تناول الموضوع الطريقة الطبوغرافية). هذه الأفكار بمثابة بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى ، يمكن لأى جانب منه أن يُترك أو يُعدّل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته . ولكن لدينا الشيء الكثير مما هو أوثق صلة بالتجربة الواقعية ويجدر بنا أن نذكره .

وقد أسلفت أن فحصى للأسباب المباشرة والأصلية للعصاب هدانى إلى صراعات بين دوافع المريض الجنسية وبين مقاوماته لها . وحينما كنت أفتش عن المواقف المسبِّبة للمرض ؛ حيث حدث كبت للجنسية وحيث يوجد مصدر الأعراض بوصفها بديلاً لما كبت ، وجدتنى أتعمق حياة المريض الماضية حتى أبلغ أولى سنوات الطفولة . وهكذا تبين صدق ما أكّده دائماً الشعراء والعارفون بالطبيعة الإنسانية : إن ذكريات هذه الفترة الأولى من الحياة ، برغم أن النسيان قد عفا على الجزء الأكبر منها ، إلا أنها تؤثر فى نموّ الفرد تأثيراً لا يزول ، وترسى على وجه الخصوص الأساس لما قد يحدث بعد ذلك من اضطراب عصبى . ولكن حيث أن خبرات الطفولة هذه كانت تتعلق دائماً بالاستثارات الجنسية ومناهضة تلك الاستثارات فقد وجدتنى أمام فكرة الجنسية الطفلية — وإذا بنا مرة أخرى بصدد اكتشاف ينقض اعتقاداً من أقوى المعتقدات الإنسانية السائدة . فقد كان الناس ينظرون إلى الطفولة على أنها "بريئة" وخالية من شهوات الجنس ، ولم يكن يتبادر إلى الأذهان أن الصراع ضد شيطان « اللذة الحسية » يبدأ قبل فترة البلوغ المضطربة . أما ما يبدر من الأطفال أحياناً من أفعال جنسية يستحيل تجاهلها فكانت تعتبر مجرّد دلائل على الانحلال والفساد الباكر أو على نزوة نادرة من نزوات الطبيعة . قلّ من كشوف التحليل النفسى ما لقى من المعارضة الشاملة

أو أثار ثورة من الاستنكار مثل التقرير بأن الوظيفة الجنسية تبدأ منذ مطلع الحياة وتكشف عن وجودها بعلامات هامة حتى فى الطفولة . ومع ذلك فلا نعرف كشفاً غيره من كشوف التحليل النفسى أمكن التدليل على صحته على نحوٍ أيسر وأتم من ذلك .

وعلىّ قبل أن أخوض فى مسألة الجنسية الطفلية أن أذكر خطأ ارتكبته ردحاً من الزمن ، وكان قميناً أن يفضى إلى القضاء على نتائج عملى بأسرها . ذلك أن معظم مرضاى كانوا تحت تأثير الطريقة الفنية التى كنت أتبعها فى ذلك الحين يستعيدون مشاهد فى طفولتهم كانوا فيها ضحية الإغواء الجنسى من شخص كبير . وكان دور المغوى فى حالة المرضى من النساء يُنسب فى أغلب الحالات إلى الأب . وقد صدّقتُ هذه الحكايات ، ومن ثمة اعتقدت أننى اكتشفت جذور العصاب فى خبرات الإغواء الجنسى هذه فى الطفولة . وقوّى اعتقادى بضعُ حالات استمرت فيها مثل تلك العلاقة بالأب أو العم أو بأخ أكبر حتى سن يوثق فيها بالذاكرة .

لو وَجدّ القارئ نفسه مدفوعاً إلى السخرية إزاء سذاجتى تلك فلا يسعنى أن ألقى عليه كل اللوم ؛ ومع ذلك فقد أعذر نفسى إذ كنت فى ذلك الحين معطّلاً ملكتى النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيز لآراء سائدة ، وأكون مستعدّاً للنظر فى أى أمر يجدّ من الأمور التى كانت تتكشف لى كل يوم . ومع ذلك ، فعند ما فطنت أخيراً إلى أن مشاهد الإغواء تلك لم تحدث قط ، وأنها لم تكن سوى أخيلة راودت المرضى . أو ربما أقحمتُها أنا عليهم ، تملكتنى حيرة غامرة حيناً من الوقت . وهكذا لقيت ثقتى بطريقتى وبنتائجها لطمة قاسية ، فلا جدال فى أننى كنت قد وصلت إلى هذه المشاهد بطريقة فنية كنت أعتبرها سليمة ، ولا ريب أن موضوع هذه المشاهد يتصل بالأعراض التى بدأ فحصى عندها . وعندما استعدتُ تماسكى ، استطعت أن أستخلص النتائج الصحيحة من اكتشافى : أعنى ، أن الأعراض العصابية لم تكن ترجع مباشرة إلى حوادث

مكتب فرويد فى منزله فى ڤيينا . ويلاحظ أن المكتب زاخر بالعاديات المصرية .

فعلية بل إلى أخيلة تنطوى على رغبات ، وأن الوقائع النفسية طالما نحن بصدد العصاب أكثر أهمية من الوقائع الموضوعية [١] . ولا أعتقد الآن أنى أقحمت أخيلة الإغواء على مرضاى ، أى "أوحيت" بها إليهم . إنما كنت فى الحقيقة قد تعثرت للمرة الأولى "بعقدة أوديب" ، التى أضحت فيما بعد ذات أهمية بالغة ، ولكننى لم أتبينها إذ ذاك من خلال تلك الأخيلة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الإغواء إبان الطفولة ظل محتفظاً بنصيب ، على ضآلته ، فى تعليل العصاب . ولكن اتضح أن مقترفى الإغواء كانوا فى غالب الأمر أطفالاً أكبر سنًّا .

يتبين إذن أن مَثَل غلطتى كغلطة من يعتقد أن أسطورة ملوك روما الأقدمين (كما يقصها تيت ليف) إنما هى حقيقة تاريخية لا كما هى فى الواقع — أعنى رد فعل لذكرى أزمان وظروف خاملة ولعلها كانت أبعد ما تكون عن المجد . وعند ما أزيلت الغلطة فتح الطريق لدراسة حياة الأطفال الجنسية . وبذلك أمكن تطبيق التحليل النفسى فى مجال علمى آخر واستخدام موارده أداةً لاكتشاف شطر جديد من المعرفة البيولوجية .

اهتديت إذن إلى أن الوظيفة الجنسية موجودة منذ بدء حياة الفرد ، برغم أنها تكون فى بادئ الأمر ممتزجة بالوظائف الحيوية الأخرى فلا تستقل عنها إلا فيما بعد ؛ ولا بدّ لها أن تمرّ خلال عملية نموّ طويلة معقدة قبل أن تصير إلى ما نعرفه لدى الراشد من حياة جنسية سوية . فهى تظهر أول ما تظهر نشاطاً لمجموعة بأسرها من المركّبات الغريزية [٢] . وهذه المركبات الغريزية تعتمد على مناطق الجسم الشهوانية ! يبدو بعضها أزواجاً من الدوافع المتعارضة (كالسادية والمازوشية أو ميل المرء أن يشاهِد ويشاهَد) ؛ كل منها (من أزواج الدوافع) يعمل مستقلاً عن الغرائز الأخرى فى بحثه عن اللذة ، ويجد موضوعه أكثر ما

---

(١) يقصد بالواقع النفسى ما يلم بالنفس من خواطر سواء كانت من نسج الخيال أو كانت طابقة للوقائع الفعلية . (المترجم)

(٢) يقصد بالمركب الغريزى جزء يكوّن مع غيره من الأجزاء غريزة بعينها . (المترجم)

يجده فى جسم المرء ذاته . وعليه فهى أولاً غيرمتركزة وتغلب عليها الشهوانية الذاتية. ثم تشرع بعد ذلك فى التآلف ؛ فتبلغ أول مراحل التنظيم تحت سيطرة المركّبات الفمّية ، ويعقب ذلك مرحلة سادية شرجية ، ولا تأخذ الأعضاء التناسلية المقام الأول وتبدأ الوظيفة الجنسية تخدم أغراض النسل إلا بعد باوغ المرحلة الثالثة . ويحدث فى سياق النموّ أن تنحى بعض عناصر المركبات الغريزية نظراً لقصورها فى خدمة الغرض النهائى (التناسل) أو تستخدم فى أغراض أخرى ، فى حين يتحول البعض الآخر عن أهدافه ليندمج فى الوظيفة التناسلية . وقد أطلقت اسم الليبيدو على طاقة الغرائز الجنسية دون غيرها . ثم لم يسعنى إلا أن أسلم بأن الليبيدو لا يمضى دائماً بذلك اليسر فى مجرى نموه المرسوم . ذلك أن الليبيدو قد يثبت عندبعض المواضع من مجرى نموّه ، إما عند قوة زائدة فى بعض المركبات ، وإما عن خبرات انطوت على إشباع سابق لأوانه . فإن حدث بعد ذلك كبت ، عاد الليبيدو أدراجه إلى هذه المواضع (أطلق على هذه العملية الارتداد) ، ومن هذه [المواضع] تنبجس الطاقة فى شكل أعراض . واتضح بعد ذلك أن اختيار نوع العصاب ، أى الشكل الذى يتخذه المرض فيما بعد ، رهن بالموضوع الذى حدث عنده التثبيت .

إن عملية الوصول إلى موضوع للحب ، تلك العملية التى تلعب دوراً هامًّا فى الحياة النفسية ، تتمشى مع تكوّن الليبيدو . فبعد مرحلة الشهوانية الذاتية ، يكون أول موضوع للحب لدى الجنسين هو الأم ؛ ويرجح أن الطفل لا يميز فى بادئ الأمر ثدى أمه من جسده هو . وبعد ذلك ، فى السنوات الأولى أيضاً من الطفولة ، تتكوّن العلاقة المعروفة بعقدة أوديب : فيركز الأولاد رغباتهم الجنسية فى الأم وتتكوّن لديهم دوافع عدوانية ضد الأب بوصفه غريماً ، وتتخذ البنات اتجاهاً مقابلاً [1] . إن جميع أشكال عقدة أوديب ومشتقاتها ذات أهمية كبيرة ، وبخاصة

(١) ملاحظة إضافية (سنة ١٩٣٥) : استمدت المعلومات عن الجنسية الطفلية من دراسة الرجال ، وكانت النظرية المستنتجة منها خاصة بالذكور من الأطفال . وكان من الطبيعى أن

أن الازدواج الفطرى فى التكوين الجنسى لدى الإنسان يظهر أثره فيضاعف فى عدد الميول التى تنشط فى آن واحد . ويبقى الأطفال ردحاً من الزمن قبل أن يفطنوا إلى ما بين الجنسين من فروق ؛ وفى خلال فترة الاستطلاع الجنسى هذه يبتدعون نظريات جنسية خاصة بهم ، وهى — ما دام نموّهم الجسمى لم يكتمل — نظريات يمتزج فيها الصواب بالخطأ وتعجز عن حل ألغاز الحياة الجنسية (لغز أبى الهول — مسألة من أين يأتى الأطفال) . نرى من ذلك أن أول موضوع يتخيره الطفل يكون من المحارم . إن مرحلة النموّ التى وصفتها تتم برمتها فى وقت قصير . ذلك أن أبرز سمة فى حياة الإنسان الجنسية هى كونها تأتى على جولتين ، تفرق بينهما فترة من الزمن . فهى تبلغ أوج جولتها الأولى فى السنة الرابعة أو الخامسة من عمر الطفل . ولكن لا يلبث هذا الازدهار المبكر للجنسية أن يعتريه الذبول ، فتلك الحيوية التى يمتاز بها الدافع الجنسى فى باكورته تخمد تحت وطأة الكبت ، ليعقب ذلك فترة كمون ، تدوم حتى البلوغ وفى غضونها تنشأ مكوّنات مضادة هى لب الأخلاق والحياء والاشمئزاز [1] . ويبدو أن الإنسان هو وحده من بين الكائنات الحية الذى ينبعث عنده النمو الجنسى على دفعتين ، وربما كان ذلك هو السبب البيولوجى لما لديه من استعداد للعصاب . وعند البلوغ تدبّ الحياة مرة أخرى فى دوافع الطفل وعلاقاته التى سادت فى السنوات الأولى ، ومن بينها روابط عقدة أوديب الوجدانية . فالحياة الجنسية فى البلوغ صراع بين دوافع السنوات الباكرة وتعطيلات فترة الكمون ، وقبل ذلك ، بينما الطفل فى قمة

نتوقع وجود تقابل تام بين الجنسين ؛ ولكن تبين خطأ ما توقعناه . فقد كشفت البحوث والتأملات التالية عن فروق جوهرية بين النمو الجنسى للذكور والإناث . فالموضوع الجنسى الأول للطفلة (شأنها شأن الطفل) هو أمها ؛ ولابد للمرأة قبل أن تبلغ نهاية نموها السوى من أن تغير لا موضوعها الجنسى فحسب بل والمنطقة التناسلية المسيطرة عندها . ومن هنا تنشأ صعوبات واحتمالات تعطيل لا وجود لها فى حالة الرجال .

(١) (ملحق ١٩٣٥) فترة الكمون ظاهرة فسيولوجية . ومع ذلك فهى لا تسبب تعطيلا تاماً للحياة الجنسية إلا فى النظم الاجتماعية التى جعلت قمع الجنسية الطفلية أحد أهدافها . وليس الحال كذلك لدى معظم الشعوب البدائية .

نموّه الجنسى الطفلى ، يتمّ ضرب من التكوين التناسلى ؛ تقوم فيه أعضاء التناسل الذكرية وحدها بدور ، فى حين لا تكون الأعضاء الأنثوية قد اكتشفت بعد . (أطلقتُ على هذه الفترة مرحلة سيطرة القضيب) . وفى هذا الطور لا يكون التمييز بين الجنسين قد صيغ بعد فى عبارات (ذكر) و (أنثى) بل فى عبارات "يمتلك قضيباً" أو "مخصى" . وإن عقدة الخصاء التى تتكون حينذاك ذات أهمية عميقة فى تكوين الخلق والعصاب على حد سواء .

ولكى أوضح ذلك العرض المركز لاكتشافاتى فى حياة الإنسان الجنسية جمعت بين النتائج التى توصلت إليها على مرّ الأيام وضمنتها الطبعات المتتالية من كتابى « ثلاث مساهمات فى نظرية الجنسية » على سبيل التصحيح أو التذييل . وآمل أن يكون هذا العرض قد يسّر فهم توسعى فى معنى الجنسية (التى أعيرت اهتماماً كبيراً وأثارت المعارضة الكبرى .) وهذا التوسع ذو شقين . أولهما فصل الجنسية عن ذلك الارتباط الضيق بالأعضاء التناسلية واعتبارها وظيفة جسمية أشمل من ذلك ، غرضها الأول اللذة ولا تخدم الأغراض التناسلية إلا على نحو ثانوى . وثانيهما اعتبار الدوافع الجنسية متضمنة كل مشاعر الود والصداقة المحض والتى جرى العرف على تسميتها بلفظ عام مبهم ، هو المحبة . ولست أعتبر مع ذلك ، أن فى هذا التوسع فى معنى الجنسية أمراً جديداً بل تصحيحاً غرضه إزالة ما أحاط بفكرة الجنسية من حدود ضيقة انسقنا إلى وضعها انسياقاً .

وقد أتيح لنا بفصل الجنسية عن أعضاء التناسل أن نصل النشاط الجنسى للأطفال والشواذ بالنشاط الجنسى للراشدين الأسوياء . وكان النشاط الجنسى للأطفال حتى ذلك الحين مجهولاً جهلاً تامًّا ، أما النشاط الجنسى للشواذ فقد كان معروفاً ولكنها المعرفة التى يشوبها التحقير ويعوزها التفهم . ولكن التحليل النفسى يعتبر الانحرافات حتى أكثرها غرابة ونكراً أموراً قابلة للتفسير بوصفها مظاهر المركبات الغريزية للجنسية ، تلك المركبات التى تخلصت من سيادة الأعضاء التناسلية ومضت باحثة عن اللذة لحسابها الخاص كما كانت تفعل فى

مطلع نموّ الليبيدو فى الطفولة . وأهم هذه الانحرافات ، أى الجنسية المثلية ، ليس انحرافاً بمعنى الكلمة. فيمكن إرجاعها إلى الازدواج الجنسى الجبلّى الذى يوجد لدى جميع أفراد الإنسان ، وإلى الآثار المتخلفة عن المرحلة القضيبية . ويمكننا التحليل النفسى من أن نكشف لدى كل فرد أثراً ما لميل جنسى مثلى . فإن كنت وصفت الأطفال "بالشذوذ متعدد الأوجه" ، فإنما كنت أستعمل تعبيرات شائعة ؛ دون أن أقصد حكماً أخلاقيًّا . فالتحليل النفسى لا شأن له إطلاقاً بمثل تلك الأحكام المنصبة على القيم .

إن ثانى التوسعات المشار إليها فى نظرية الجنسية يبرره ما كشف عنه التحليل النفسى من أن جميع دوافع الودّ كانت فى الأصل ذات طابع جنسى كامل ولكنها عطلت عن متابعة هدفها أو أعايت . أما والغرائز الجنسية يمكن أن تتأثر وتغير اتجاهها على هذا النحو فقد أمكن استغلالها فى النشاط الثقافى من كل لون ، ذلك النشاط الذى تسهم فيه الغرائز بأكبر نصيب .

إن كشوف المستغربة فى الجنسية لدى الأطفال وصلت إليها فى بادئ الأمر عن طريق تحليل الراشدين . ولكن أمكن فيما بعد (منذ حوالى سنة ١٩٠٨ وما بعدها) التحقق منها على أتم وأوفى وجه بالملاحظات المباشرة للأطفال . وإنه لمن اليسير حقًّا أن يقتنع المرء بوجود نشاط جنسى مطرد لدى الأطفال حتى لا يسعه إلا أن يتساءل فى دهشة كيف استطاع الجنس البشرى أن ينجح فى إغفال الحقائق واعتناق تلك الأسطورة المستحبة ، أسطورة لا جنسية الطفولة ، طوال ذلك الزمن . هذا الأمر العجيب لا بدّ أنه راجع إلى النسيان الذى يخفى عن معظم الراشدين طفولتهم .